تشظّي الهويّة وأزمة الذّات في روايّة: (قصر الصّنوبر) لإلهام بورابه. -مقاربة ثقافيّة-

Identity Fragmentation and the Crisis of the Self in the Nouvel :"Kasr Al Sanawbar" (The Pine Palace) by Ilham BOURABA -Cultural approach-

ط. د. مريم بن محاد♥

أ. د. حميد علاوي ♥

المُعرّف الرّقميّ للمقال: DOI 10.33705/0114-027-002-009

تاريخ الاستلام: 26-02-2025 تاريخ القبـول:29-04-2025 تاريخ النّشر:15-06-2025

ملخّص: تسعى هذه المقاربة الثّقافيّة للبحث عن تمثّلات الهويّة في روايّة "قصر الصّنوبر" للرّوائيّة إلهام بورابة، انطلاقا من رصد مجموعة من الظواهر التّاريخيّة والاجتماعيّة ومن خلال صراع هويّتين وثقافتين مختلفتين استطاعت الأولى بفضل نشاطها الاستعماري التّبشيري أن تجعل لنفسها حق الهيمنة والسّيطرة على الهويّة الثّانيّة وتمكّنت من وضعها في خانة الهامش وجعلتها تعيش في هوة من النّمطيّة والدّونيّة عن طريق تقسيم العالم إلى ثنائيّة (المركز والهامش).

لقد ارتبط التّوسع الاستعماري بحركات التّبشير نظرا لما حملت في باطنها من مشاريع ومخطّطات عسكريّة قصد القضاء على هويّة ودين الآخر المتخيّل، قام

♥جامعة أبو القاسم سعد الله_ الجزائر2، مخبر التّرجمة والمصطلح، الجزائر، البريد الإلكتروني: meriem.benmohad@univ-alger2.dz (المؤلف المرسل).

♥جامعة أبو القاسم سعد الله_ الجزائر2. الجزائر، البريد الإلكتروني: hamid.allaoui@univ-alger2.dz.

عدد من المسؤولين ورجال الدّين بقيادة تلك الحملات التي بلغت ذروتها تزامنا مع تعيين **الكاردينال لا فيجري** الذي جعل العمل التّبشيري الفردي عملا منظّما خاصّة بعد انشائه جمعيّة "الآباء البيض"، وجمعيّة "الأخوات البيض" التي اهتمّت بفئة البنات اليتيمات وتنشئتهن تنشئة نصرانيّة باسم الرّعايّة مثلما ورد في روايّة قصر الصّنوبر.

كلمات مفتاحيّة: الهويّة؛ التّبشير؛ الأقليات؛ الاستعمار؛ التّشظي والانشطار.

Abstract : The aim of this cultural approach seeks to search for representatios of identity in the nouvel **«Qasr al Sanawbar »** by **Ilham BOURABA.** To through the struggle of two different identities and cultures; however, this former was able owing to its colonial missionary activity to create its own right to dominate and control the other, as it managed to put the same in the margin.

a number of officials and clerics led those campaigns, which peaked up coinciding with the appointment of Cardinal Lavigerie, who made individual missionary work an organized work, mainly after the creation of the Association of White Fathers and the Association of White Sisters, which took care of the category of orphaned girls along with their Christian upbringing.

Keywords: Identity; Evangelization; Minorities; Colonization; Fragmentation and Fission.

مقدّمة: ما إن أحكمت فرنسا سيطرتها على الأراضي الجزائريّة حتى كشفت عن نواياها الحقيقيّة التي ترمي إلى نشر المسيحيّة فمن وجهة نظر القادة الفرنسيين أنّ مقولة **الجزائر فرنسيّة** لن تتحقق إلا بنشر المسيحيّة، كان للجانب الدّيني وللكنيسة دور في احتلال الجزائر باعتبار أنّ فرنسا ترى نفسها هي الحامي

الرّسمي للكنيسة الكاثوليكيّة ممّا أوجب عليها التّخلص من الأسطول الجزائري الذي أصبح يشكل خطرا يحدّق بها.

إنّ المشروع الفرنسي الاستيطاني في الجزائر سعى إلى الاستحواذ على المظاهر الثّقافيّة، من خلال استراتيجيات القوة والهيمنة التي تمارسها المؤسّسة الامبرياليّة في دمج المنطقة المستعمرة وجعلها أرضا مملوكة لها، مثل ما قامت به فرنسا كمحاولة لمسح ومصادرة الوجود الجزائري والثّقافة الجزائريّة والدّين الإسلامي، ممّا شكّل لدينا وجود أقليات مستضعفة مقهورة من سكان المنطقة الأصليين، لكنّ هذه الفئات كان لا بدّ لها من إيجاد سبل للمقاومة كرفض منها للثقافة الدّخيلة والمفروضة عليها غصبا مما مكّنها من إنتاج خطاب مناهض للكولونيا ليّة، بمثابة ردّ على سياستها الاستعماريّة ومحاولة منها لتفكيك جل أنواع الخطابات والمخطّطات الاستعماريّة التي سعت للقضاء على الهويّة المحليّة ومكوناتها الثّقافيّة التي تمثّل الوجود الجزائري الفعلي مثل ما حدث بالضّبط مع نزيلات قصر

الصّنوبر. فكيف كرّست العلاقات الاستعماريّة لوجود أقليات عربيّة مسيحيّة في الجزائر؟ وهل استجابت تلك الأقليات من نزيلات قصر الصّنوبر للسياسة الفرنسيّة النّاعمة؟ وما هي تجليات الأثر الاستعماري للسّياسة الفرنسيّة عند تلك الأقليات في انتماءاتها المجتمعيّة؟ ومن أجل كشف تمظهرات الهويّة في روايّة قصر الصّنوبر اخترنا إجراء مقاربة ثقافيّة لربط السّرد بالرّاهن السّوسيو–ثقافي في ظل الازمات التي مر بها المجتمع خلال تلك الفترة.

1 . حملات التّبشير وإنشاء أسقفيّة الجزائر: يربط أغلب المفكرين بين الاستعمار والتّبشير خاصّة وأن التّبشير بدأ مع نهايّة العصور الوسطى وتحديدًا تزامنا مع المد الاستعماري والحملات الاستكشافيّة للمجهول، ويرى المبشرون أنّ "**الباعث الأوّل وراء نشاطهم هو القضاء على الأديان غير النّصرانيّة**"

1(بقطاش، 1992) فقد خدمت الفرق الدّينيّة التّوجه السّياسي والتّوسع الجغرافي للتبشير معا لما يتمتع به رجال الدّين من قوة في التّأثير على شعوب المستعمرات.

كان المبشّر يرى في مشروع الجزائر الفرنسيّة الطريق الأسمى لتحقق فكرة الجزائر المسيحيّة، وتزامن الانطلاق الفعلي لحملات التّبشير مع وصول **الكاردينال لا فيجري** إلى الجزائر عام 1867م، بدءا من مقولته "**آخر أيام الإسلام هذا الرّكام من العقائد المنحطة والمتوحشة قد اقتربت، الجزائر في عشرين عاما لن يكون فيها إلاه آخر غير المسيح، لنكمل حروبنا الصّليبيّة**"[2] (ولد خليفة 2003)، إنّ ما جاء به الكاردينال لا فيجري كان منافيا تماما للمعاهدة السّائدة آنذاك والتي حدّت دور الكنيسة في الاهتمام بشؤون الرّعايا الكاثوليك، ولكنّه بذكائه ودرايته بشؤون العرب والمسلمين سهّل الأمر عليه، كيف لا وهو أب التّبشير الذي تولى مهام مشابهة في المشرق خدمة للمسيحيّة " **فكان قرار لا فيجري لأعوانه هو الإيحاء للمسلمين في شمال إفريقيا بالتّواضع والتّشبع بهم بغرض جلبهم إلى يسوع المسيح**" [3] (عنايّة، **2010**)حيث حاول المبشرون قدر الإمكان تقليد سكان المنطقة من حيث العادات والتّقاليد والمأكل والملبس لكسب ثقة النّاس.

اعتبر إنشاء أسقفيّة الجزائر من أهم مراحل التّبشير خاصّة وبعد استتكار عدد من المبشرين مرور سنوات على احتلال الجزائر دون أي انتشار للدين المسيحي تم الاتفاق وبالإجماع على ضرورة تنصير العرب، وانطلقت حملات التّبشير على يد الأسقف **أنطوان ديبيش**[4] ثم واصل الأسقف **لويس أنطوان بافي**[5] (بقطاش 1992) الذي عرف بدبلوماسيته وحكمته "**واستمرت ولايته عشر سنوات**"[6] (وعلي، 1988، 1989) سعى من خلال نشاطه التّبشيري إلى الطعن في الإسلام والتّشكيك به استمرت حملات التّبشير على يده ورغم الجهود المضنيّة كان التّحقق الفعلي للمشروع على يد الكاردينال لا فيجري.

يُعتبر **الكاردينال لا فيجري**[7](Baunard; 1989) من أبرز دعاة نشر المسيحيّة، لقد حاول بسط النّفوذ والهيمنة الدّينيّة تزامنا مع المد العسكري الفرنسي في الجزائر، وتولى المنصب على أساس أنه يحمل رسالة إلهيّة مفادها نشر الدّين في قارة إفريقيا وإخراجها من الظلمات إلى النّور، وصل إلى الجزائر سنة 1867 وبعد مرور أربعة أيام من وصوله أصدر رسالة أعرب فيها عن طموحه الكبير في إحياء الكنيسة الإفريقيّة وتنصير عدد كبير من المسلمين وصادف تعيينه مطرانا على أسقفيّة الجزائر "**وقوع مجاعة السّتينات والتي صاحبها خطر الجراد الذي أتلف المحاصيل في إقليم مجانة بين 1869، 1870م، وكذلك الفقر الاقتصادي وانتشار الأمراض والأوبئة القاسيّة**"[8](سعد الله، 1992) فشكلت هذه المجاعة والوباء والجفاف الذي قضى على الفلاحين أزمة اقتصاديّة وفرصة ذهبيّة لديه من أجل الانطلاق في تحقيق مشروعه التّبشيري القائم على **الإحسان** وذلك من خلال التّبرعات التي جمعها باسم المسيحيّة.

استعان **الكاردينال لا فيجري** برجال دين مبشرين من الأهالي أنفسهم رأى فيهم سهولة الاندماج وسط المجتمع الجزائري وشعر بالحاجة إلى هيئة منظمة تتولى شؤون التّبشير فأسس جمعيّة "**مبشري إفريقيا**" الذين عرفوا باسم "الآباء البيض" **نسبة إلى لباسهم العربي الأبيض**" [9](Lavigerie ;1894) وهم المبشرون الذين ينتمون لجمعيّة مبشري إفريقيا التي أسّسها الكاردينال لا فيجري في المربع الأبيض وكان هدفها " **تنصير الجزائريين والأفارقة**" [10](Lavigerie ;1894) وبعدها بسنة تقريبا تم تأسيس فرعها النّسوي تحت اسم "**مبشرات السّيّدة الإفريقيّة**" أو ما يعرف **بالأخوات البيض.**

كانت مهمّة الأخوات التّبشير في الوسط النّسوي عن طريق تولي مهمّة العلاج والتّعليم والمساعدات الخيريّة " **عند المسلمين لا توجد سوى المرأة التي يمكن أن تجابه المرأة وتوصل إليها تعاليم المسيحيّة وأنوار الحضارة**"[11] (سعيدي 2009) لذلك استنجد بسيدات مبشرات ومع وصول أوّل دفعة لهن تم القيام

بتكوينهنّ على أساسيات وقواعد العمل التّبشيري إضافة إلى تعليمهن العربيّة والأمازيغيّة ثم يتم إرسالهن لمراكز عملهن أين يقمن بممارسة عملهن التّبشيري وهذه أهم نقطة سنركز عليها في دراستنا ألا وهي علاقة الأخوات المبشرات باليتامى من الأهالي وكيفيّة تعليمهن لتنشئتهن تنشئة نصرانيّة، وسنحاول التّطرق لأهم الآليات والطرق التي ارتكز عليها المبشرون في عملهم من خلال تحليلنا ودراستنا لمدونة **قصر الصّنوبر لإلهام بورابه** وعن نزيلاته من الأهالي.

2_الاعتراف بتواريخ مهمّشة وهويات منسيّة: إنّ بؤرة العمل السّردي لروايّة **قصر الصّنوبر** للكاتبة **إلهام بورابة**[12] تحكي عن الحياة في هضبة **الرّوفاك** في العام الذي تلا اندلاع الثّورة التّحريريّة وعرف كما ذكرنا سابقا بعام النّار كنايّة عن النّار التي اشتعلت من طرف المستعمر بغيّة إخماد الثّورة وإحراق الجزائر كلها، والرّوايّة عبارة عن بحث اجتماعي في علم النّفس لباحثة متطوعة تدعى نور يحمل عنوان "**الواقع الاجتماعي للمسعفات بقصر الصّنوبر**" وقصر الصّنوبر هو الميم كما عرف باسم الرّاعي الصّالح أو الميتم المخصص للرعايّة، هدفه سلب هويّة النّزيلات بإخراجهن من الإسلام لاعتناق المسيحيّة.

أبدعت الكاتبة في الكتابة عن مأزق الهويّة وأزمة الذات المقهورة وعن أقليات لطالما كانت مهمّشة وتواريخ اعتبرت من المسكوت عنه، مثل حقيقة نزيلات قصر الصّنوبر اللواتي نشأن على يد الأخت ماري هذه الأخت التي تعتبر واحدة من الأخوات البيض قامت بتربيّة البنات وتعليمهن ورعايتهن مما ولّد لديهن تعلقا غير طبيعي بها وبقصر الصّنوبر، بل ويمكن القول انه عشق أبدي نسج أرواحهن بروح ماري وبجذور قصر الصّنوبر.

بعد انجلاء قوات الاحتلال تفطنت جهات معينة لسلوك النّزيلات المشكوك فيه ممّا أوجب تدخل جهة سريّة قامت بترحيل الأخوات والنّزيلات اللواتي اعتنقن المسيحيّة إلى روسيا وأرجاء متفرقة من أوروبا حفاظا على حياتهن ممّا ضاعف أزمة الهويّة لديهن فقد تخلين عن إسلامهن بل ونسينه تماما، منهن من أعلنت

اسلامها وارتدت الحجاب إرضاء للجماعة التي كانت تنوي تدمير القصر بمن فيه. وفي اهتمام نور بأمر فاطمة التي كانت من بين اللواتي قاموا بترحيلهن لروسيا أين احتضنها الفن هي وعيشة، فاطمة لوحدها حملت قصّة وطن وقصّة هويّة وكأن الكاتبة تريد ردّ الاعتبار لهذه الفئة المهمّشة.

3. أثر السّياسة الاستعماريّة في تشكيل أقليات مسيحيّة في الجزائر: توصّلنا في بحثنا إلى حد الآن إلى أن التّبشير لم يحمل توجها دينيا فحسب بل كان توسّعيا استعماريا ومن أهم نتائجه تشكيل وخلق مجموعات من الأقليات البشريّة المستضعفة وهذه الأقليات تمثلت في الفئات المقهورة اجتماعيا، وسياسيا واقتصاديا. خاصّة فئة الأيتام التي تعاني الحرمان كونها تعيش تحت وطأة الاستعمار، الذي رأت فيه المنقذ والحامي لها كيف لا وهو من أنقذها من التّشرد ووفر لها المأكل والمشرب والمأوى.

أتت السّنة النّيران كما ذكرت الكاتبة على أكواخ الطوب وترتب عن ذلك ضحايا من نساء وأطفال ورضّع، كان الدّمار كارثيا حتى الجثث صعب التّعرف عليها، في حين جمع الأيتام ضحايا هذه المأساة وتم حشدهم إلى المياتم المجهّزة والمعدّة لذلك، وورد ذلك على لسان واحدة من البنات اللواتي فقدن أهاليهن في ذلك اليوم " **لم أكن أبلغ العاشرة حين حشدونا في الميتم. قالت الأخت في لونها الأبيض تقدّمن في هدوء إلى المغسل ثم إلى الغذاء**"[13] (بورابة، 2020) وهذا العمل يندرج ضمن مخطط التّبشير الذي يقوم على مبدأ الإحسان والأعمال الخيريّة مثل ما ذكرت الكاتبة تماما في الرّوايّة على أنّ البنات اليتيمات تشرف عليهن خادمات بالرّعايّة.

كان الهدف الرّئيسي من الرّعايّة هو تشكيل أقليات مدمجة في الثّقافة الفرنسيّة أو بالأحرى أقليات مسيحيّة من الأهالي، وقد حصل هذا بالفعل فالنّزيلات وبعد أعوام أصبحن جد متعلّقات بالأخت نفسها وأبين مفارقتها حيث اندمجن في الثّقافة الفرنسيّة "**الميتم صار رفاهيّة لنا، تعلمنا لغة وأدبا فرنسيًّا، علّمتنا ماري صنع**

الحلوى الفرنسيّة والتّطريز والحياكة" [14] (بورابة، 2020) فقصر الصّنوبر أصبح عبارة عن المأوى والملجأ وأطلق عليه الرّاعي الصّالح، وتعلّق النّزيلات بماري أصبح غير عادي حتى أن البعض منهن بعد أن كبرن رفضن مغادرة الميتم وبقين متمسكات بشريعة ماري يحتفظن في منازلهنّ بتمثال العذراء وصورة ماري.

رفضت البنات كل زوج طلب منهن الابتعاد عن دين ماري وعن التّمثال لأنّه الحامي والحارس لهن، وقد أجابت واحدة منهن خطيبها الذي طلب منها عدم اصطحاب التّمثال بالرّفض قائلة: "**ماري كانت قدري وتشكّلت على أصابعها أيها السّكير**"[15] (بورابة، 2020) وبعد مرور سنوات لا زلن يحملن حنينا لماري ولقصر الصّنوبر والدّليل على ذلك زيارة فاطمة للقصر وتبرعها بكل ممتلكاتها لفائدة الميتم وتأثرها الشّديد وبكائها، فقد شعرت أنّ المكان يشتعل ذكريات وكيف لهن نسيان جذورهن التي تشابكت مع الأخت ماري في قصر الصّنوبر وروحها التي يستشعرنها في كل واحدة منهن "**كنت أرى أرواح القديسات تطوف بالأروقة وصرت كلما جالسّت فاطمة فيما بعد أستشعر روح ماري في جسدها فكم نحن منفصمون؟ !!!**[16] (بورابة، 2020) والانفصام هنا يعني الانقسام والانشطار المؤدي لصراع نفسي عاشته النّزيلات.

إنّ تشكل هذه العلاقة القويّة يعود للسياسة الاستعماريّة النّاعمة التي انتهجتها الإدارة الفرنسيّة خدمة لمشروع التّبشير الذي رأى المستعمر أن تحققه الفعلي سيكون أكثر نجاحا مع فئة الأطفال اليتامى الأبرياء الذين لم يدركوا بعد معنى الانتماء والوطن والهويّة، ومن ناحيّة أخرى حرموا من جل حقوقهم التي سعى المستعمر جاهدا لتوفيرها لهم لكن بالطريقة التي تخدم مشروعه الذي يسعى فيه إلى مسح ماضيهم وتاريخهم وبناء حاضرهم وذلك عن طريق الرّعايّة وتوفير لهم كل ما قد ما حرموا منه.

اعتبر الاحتلال حاجة وعوز الأهالي ورقة رابحة في يده كيف لا وقد صورت أحداث الرّوايّة تعلق النّزيلات بقصر الصّنوبر وبالأخت ماري التي ربتهم على

أصابعها بعد أن كان اليتامى سابقا يعاملون كعبيد عند العائلات التّركيّة التي كانت تفتح لهم بيوتها في مقابل استنزاف أجسادهم، ما جعل الجدة تشكو ذلك لسنوات "**آه يا سي حميدة مازال ظهري يئن من وطأة قنطار القمح، مازالت يدي تتذكر جراح الرّحى...الأم الكبيرة التي كانت تضع في القصعة حبات القمح غير مكتملة الطحن وتحثها على عجنها حتى تلين، وما أن تلين حتى تكون قد ارتوت من دم أصابعها وعرق جبينها.**"[17] (بورابة، 2020) فقساوة الحياة كتبت على الأيتام سواء من قبل الأتراك أم الفرنسيين فقط يختلف الأمر في السّياسة المنتهجة من قبل الفرنسيين التي توحي إلى الرّعايّة وفي باطنها تحمل القضاء على الثّقافة العربيّة الإسلاميّة قضاء تاما من خلال إفراغ الشّعب من كينونته ومن تاريخه وجعله مجرد تابع لا أكثر.

4. أزمة الهويّة وانشطار الذات: سنحاول التّطرق إلى مسألة الهويّة، هويّة نزيلات قصر الصّنوبر وأزمة الانتماء خاصّة بعد التّعايش الذي كان بين الأنا والآخر المستعمر داخل قصر الصّنوبر، هذا الفضاء المكاني الذي يشكّل لدينا أزمة، والأزمة تبدأ لحظة الاحتكاك بالآخر، خاصّة إذا ما تم عدم قبول الآخر كما هو باختلافه الثّقافي والفكري والإيديولوجي، فيحاول القضاء عليه حتى يجعله ضعيفا خاضعا؛ بل ولديه قابليّة للاستعمار ويصور" **المستعمرين بوصفهم شعوبا من أنماط منحطّة بسبب أصلهم العرقي وذلك لكي يبرر فتح هذه الشّعوب**"[18](هومي، 2004) بينما يتمتع بأفضليّة عليه قصد التّحكم فيه واستغلاله ونهب خيراته والاستحواذ عليه مثلما حدث بالضّبط مع نزيلات قصر الصّنوبر.

إنّ الواقع الذي عاشته النّزيلات في أحضان الأخوات الفرنسيات اللواتي اعتبرنهنّ أمهاتهنّ اللواتي قمن بتربيتهن جعلهنّ يعانين نفسيا جراء الانشطار الذاتي أو ما يعرف بالانقسام الدّاخلي الذي تشعر به الذوات اتجاه أفكارها ورغباتها وتطلعاتها... مشكلا لديها صراعا وتشتتا بين ذاتها وبين الآخر. ويذهب **بيير ماكلر** إلى أنّ "**إعلان أقسام من الشّخصيّة عن حالة طلاقها عن بعضها البعض محطمة العلائق فيما بينها ومحتفظة**

بحواجز الذاكرة فيما بينها في الأماكن التي يفرض أن تكون مرتبطة "[19] (أومقران 2005) مثل ما حدث تماما مع البنات النّزيلات حيث انقسمن بين ديانتين وثقافتين اثنتين واحدة ينتمين إليها والأخرى يمكن القول إنها فُرضت عليهن لكنّهن تعلقن بها واعتمدنها أكثر من الأولى لأنهن استحببن الطريقة التي أدخلت بها تلك الثّقافة الدّخيلة عليهن " **كل الأديان متماثلة، أنا مسلمة لكن بمسحة من مسيحيّة ماري، عربيّة مع تدحرج حروف فرنسيّة من لغتها أيضا ثم لا أحد يسالنّي عن ديني** [20](بورابة، 2020) **لأنّ** هويّة الذات تتبني على ماضيها وبفقدانه تضيع تلك الذات وتكون ضحيّة الانشطار والانقسام الدّاخليين.

كانت **ففلة** على دين **ماري** رغم ما كان يتردد على السّنتهن من كلام المسلمين مثل "**بسم الله والتّكبير**"، وتعلمها للصلاة والمداومة على صيام رمضان إلا أنّ لوحة العذراء كانت تتوسط جدار بهو بيتها، كذلك **فاطمة** التي تمسكت بشريعة **ماري** كانت من المكبرين أصبحت البنات تعانين انفصاما حقيقيا فرغم نشأتهن على الثّقافة الدّخيلة صرن بارعات في صنع الحقائب والحياكة والتّطريز وحفظن الأغاني بلغة ماري والرّقص أيضا كان على وقع ماري إلا أنهن كن مدركات تماما أنّها تفصلهن عن جذورهن وهويتهن ودينهن "**هي ثقافة جميلة أكيد لكن كانت تفصلنا عن هويتنا البسيطة**" [21] (بورابة، 2020) وفي هذه النّقطة يتأكد الانشطار الحقيقي للشخصيات.

ذكرت إحدى النّزيلات في مشهد آخر أنّ البعض منهن كنّ يقمن بتحيّة العلم الجزائري بينما البعض كنّ يقمن بتحيّة العلم الفرنسي، وأنّ الاختلاف كان بالنّسبة لهنّ اختلاف ألوان واختلاف نشيد **فقط** " **قد كانت عيشة تصطف لتحيّة العلم علم المستعمر، فرق ألوان وفرق لغة نشيد، ولم أجد فرقا آخر يثبت هويتنا التي شكلها البيت والحي والمدرسة**"[22] **(بورابة، 2020)** غير ذلك لا شيء كان يثبت **هويتهنّ** وهذا ما زرعته السّياسة الاستعماريّة فيهنّ، فقد رافقهن قصر الصّنوبر والحنين لماري وتمثال العذراء متحديات معتقدات المجتمع المسلم.

5. تشظي الهويّة وقلق الانتماء: تطرح روايّة (قصر الصّنوبر) إشكاليّة **الهويّة والانتماء** بالنّسبة للذات الجزائريّة المشتتة بين عالمين اثنين، جعلها تتيه

بين هويتين الأولى تنتمي إليها والثّانيّة نشأت عليها مما أدى إلى **تشظي** هويتها الأصليّة منبهرة بهويّة وثقافة الآخر الذي يعتبر غريبا عنها، خاصّة وأنّه يمثل المستعمر المغتصب للأرض والوطن، وهذا التّشتت والانشطار جعل هذه الذات تعاني صراعين داخليين الأول مع ذاتها والثّاني مع المجتمع الذي أصبح يرى فيهن **أقليّة** كافرة انسلخت عن الملة وتنكرت لدينها واتخذت ثقافة ودين الآخر طريقا لها، حيث تناولت الرّوايّة موضوع صراع الشّخصيات بين الإسلام والمسيحيّة باعتبار أنهن فقدن انتماءهن العربي الإسلامي.

عاشت النّزيلات واقعا أليما وانقساما بين ذات تدعو للإسلام باعتباره الدّين الرّسمي السّائد بين سكان المنطقة وبين الدّين المسيحي الذي نشأن وترعرعن عليه، فقد أشهرت واحدة من النّزيلات اعتناقها المسيحيّة وتحدّت الجماعة ممّا أدى إلى محاولة حرق لقصر الصّنوبر وجعل جهة سريّة تتولى ترحيل الرّاهبات والنّزيلات اللواتي اعتنقن المسيحيّة مثل فاطمة وعيشة لجهات مختلفة في أوروبا.

عند عودة فاطمة من روسيا كان الجميع يتفادى التّعامل معها وقد منعت بعض الأمهات بناتهن من التّحدث معها أو زيارتها خوفا على إسلامهن ومعتقداتهن، وعلى سبيل المثال نذكر والدّة **نور** التي حذّرت ابنتها من زيارة فاطمة قائلة " **تلك الرّوسيّة التي لا تعرف الله، فلينتقم منها اسم جلالتّه العظيم... وهل فاطمة تعرف الله؟**" [23] **(بورابة، 2020)**هكذا كانت والدّة نور ترد عليها في كل مرة تتحدث فيها عن **فاطمة**، لكن **نور** لم تبال بكلام والدّتها ولم تهتم قط لما تدين به **فاطمة** فربما لا دين لها كيف لا وهي من عاشت في روسيا ذلك البلد الشّيوعي القائم على الفكر الملحد، إضافة إلى كونه بلدا شيوعيا فهو كفيل لردّ أي واحد عن دينه " **في روسيا لا يمكن أن تتذكر إسلامك ولا اسمك**" [24] (بورابة، 2020)فلم يشهد **لفاطمة** صيام رمضان ولا صلاة ولا ممارسة دينيّة تحيل إلى ديانتها.

لم يحدد العرب أنفسهم انتماءهم؛ فمرة يربطون أنفسهم بعائلات عربيّة ومرة بعائلات غير عربيّة " **فمرة تعترف أن عائلتها الجديدة يهوديّة ومرة تؤكد أنّها عربيّة المنبت نقيّة بدليل اسمها المشتق من آمنة**"[25] (بورابة، 2020) والسّبب الرّئيسي لكل هذا الارتباك والتّهجين يعود للأتراك الذين لم يكتفوا بتسليم الوطن إلى فرنسا بل وعاثوا بالنّسب "**كانت جدتي تربط كل إسهاب أن الأتراك ما اكتفوا بتسليم البلاد لفرنسا لكنهم عاثوا بالنّسب**"[26] (بورابة، 2020)حيث لم يجلبوا سوى الصّعاليك وبحارة مختلفي الجنسيات تماما مثلما فعلت فرنسا غداة الاحتلال.

اختلفت **رعايّة** الأتراك عن رعايّة الفرنسيين في قصر الصّنوبر حيث أن نزيلة قصر الصّنوبر كانت إن تزوجت تسعى الأخت ماري لإدماجها قدر الإمكان في العائلة المستقبلة إضافة إلى جهازها الذي يليق ببنات القصور عكس **بنات الحسنى** اللّواتي كنّ عرائس فقر يتزوجن من أجل الأعمال المنزليّة وخدمة الغير كأنّهن خلقن من أجل العمل فقط، تقول واحدة من بنات الحسنى: "**بين استعمار واستعمار فرق ثقافة، الأتراك وإن أقاموا لنا الدّين فإنهم استعبدونا. والفرنسيين مسخونا بدعوى الرّعايّة. لكلّ حاجته منا**" [27] (بورابة، 2020) وهنا تكمن النّقطة المزدوجة بين الاستعمارين؛ فقصر الصّنوبر منح البنات الحب والرّعايّة والأمان في مقابل التّبشير واعتناق المسيحيّة، بينما قامت العائلات التّركيّة برعايّة الأيتام قصد استغلالهن واستعبادهن، ومنه نستنتج أن الأتراك صنعوا فئة من **الأقليات** تعرف **ببنات الحسنى**، تعتبر فئة مقهورة من الأيتام الذين تم استغلالهم، بينما صنعت فرنسا فئة من الأقليات المسيحيّة في الجزائر أصلهم من الأطفال الأهالي الذين فقدوا ذويهم عام النّار.

6. مشروع صناعة الأقليات من الذوات المقهورة: نجح المشروع الفرنسي القائم على صناعة أقليات مسيحيّة في الجزائر، لكن هذه الأقليات تشكلت عن طريق الإخضاع غير المشروع كون هذه الفئة من البنات أولا هنّ من الأيتام الذين كانوا بمثابة الفرصة الذهبيّة لتحقيق هدف التّبشير، استهدفت الأقليات

المستضعفة من السّكان الأصليين واستغلت حاجتهم وعوزهم وجهلهم مما سهل انتشار ونجاح هذا التّشكيل المؤسّساتي.

استغل المستعمر براءة وسذاجة هذه الفئة الضّعيفة والمغلوبة على أمرها: هنّ مجموعة من ضحايا الاستعمار، وهنّ بأنفسهن قد أقرن بذلك " **رأس اليتيم قريب لربي، لا أحسن من تعبير دشرتنا يا وطن يتاجر بجلده**"[28] (بورابة، 2020) وكما تقول **حدّة**" **أنا ابنة خطيئة لكن ليس لدي ذنب**" [29] (بورابة، 2020) فتلك الرّعايّة والمأوى الذي حصلن عليه قد دفعن ثمنه غاليا فبعض البنات قدّمن ضحيّة لنزوات عابرة، مثلما حكت **فاطمة** أنها في يوم ما تم اصطحابها هي **ومريم** من قبل رجل مجهول "**أخذنا ليلا ذاك الذي ارتوى على فراش براءتنا**" [30](بورابة، 2020) هو نفسه صاحب السّيارة الفخمة الذي أخذهما إلى شقة في الجزائر العاصمة، أتت في مساء ذلك اليوم سيدة وأخذت **مريم** بينما أبقى **فاطمة** أسبوعا للمتعة ثم سلّمها **لإبراهيم** الذي تزوجها بعدها، فلا يتيمة تغادر الميتم دون أن يغتصبها رجل مهم ثم يعيد تضميد جرحها.

تضاربت أحداث التّاريخ في الرّوايّة بين مستعمر فرنسي وتركي، فالأتراك بدورهم استعبدوا السّكان الأصليين وجعلوهم عبارة عن عبيد وخدم تحت اسم الرّعايّة أو ما يعرف "**ببنات الحسنى**" من الإحسان" **كم عديم نسب في مجتمع الجدود؟ يجدر بنا أن نبحث عن جذورنا كي نثبت للتاريخ أننا بألقاب وأنساب وأشجار عائلات عاليّة...لما تيتمت جدتي كفلتها عائلة تركيّة بتنازل موثق من والدّتها، فهكذا كانت تتم الأمور وكأنها تجارة عبيد، لكن الأمر كما روجوا له هو رعايّة**" [31](بورابة، 2020) فالعائلات التّركيّة الكبيرة كفلت البنات اليتيمات بمقابل خدمتهن في المنازل، كان الأتراك على مر التّاريخ أولياء نعمة في مقابل الخدم من الذين تكفلوا برعايتهم.

إنّ الحرب هي عبارة عن فعل مخل بالحياة النّفسيّة فبطلة الرّوايّة **نور** قائمة على دراسة الواقع الاجتماعي لنزيلات الرّاعي الصّالح، هي متربصة من معهد

النّفس غارقة في دراسة ملفات مجهولي النّسب، وخاصّة ملف شقيقتها بالتّبني **فلة** التي كانت من بين النّزيلات، وقد قدمت نور دراسة سيكولوجيّة عن حياة النّزيلات إدراكا منها للأثر النّفسي الذي تشكل لديهن من خلال ما عايشنه، ولكل مخلفات الاستعمار التي بقيت في أنفسهن. خاصّة وأن من بينهن من لا تعرف لها أهلا "**أما رهواجة فلا تعلم لها أبًا ولا أمًّا**" [32] (بورابة، 2020) وأخرى رفض والدّها الاعتراف بها حتى بعد أن دلّتها والدّتها عليه، وواحدة رفضتها والدّتها لأنّ والدّها فرنسي وهو بمثابة العدو المغتصب "**أمي لن تأخذني لأنني ابنة كلب فرنسي**"[33] (بورابة، 2020) وواحدة لا تحمل حتى لقبا " **فنحن برغم كل شيء لدينا لقب ...وأخريات لم يعرفن أباءهن**"[34] (بورابة، 2020) وللأسف إنّ عدد مجهولي النّسب كان عددا خياليا مما ضاعف أزمة الهويّة والانتماء لديهنّ.

من أهم النّقاط التي طرحتها الكاتبة هو الحديث عن هذه الفئة " **لم أتحمل العدد الرّهيب من مجهولي النّسب ولم أتحمل أكثر الطيش الذي أنجب كل تلك الطيور**"[35] (بورابة، 2020) تحاول الرّوائيّة البحث في السّبب الذي جعل هؤلاء الأبريئات يعانين ويحرمن من النّسب الذي يمثل هويّة الفرد وذاته، مما خلق أزمة ما يعرف ببنات الخطيئة، بنات يتيمات يصارعن من أجل العيش في مجتمع يرى فيهن أقليات لا تمتلك حتى حق العيش ببساطة لأنهن حرمن حتى من حق التّحليق.

نحس بالعذاب النّفسي وأزمة الذوات المقهورة من خلال سرد النّزيلات لمأساة عشنها فقد كان السّرد متداولا بينهن قصد التّعبير عن معاناتهن، وما في نفوسهن وعن تساؤلاتهن عن حقيقتهن وهويتهن المسلوبة قهرا، ممّا أدى إلى انشطار ذواتهن بين إسلام ومسيحيّة، بين ثقافة فرنسيّة وثقافة محليّة بين تشرد وضياع ويد تأخذك لبرّ الأمان الافتراضي الذي سيغيّر ويمحي جلدك واسمك وعرقك ودينك وهويتك باختيارك. "**سالتّ خيرة: هل سيغيّرون أسماءنا إلى أسماء فنيّة ضحكت خيرة في خبث وكنت مثلها أعرف تماما أنّهم يغيرون جلدنا وعرقنا**

ونغيّر أسماءنا باختيارنا"[36] **(بورابة، 2020)** فالحرب وحدها كانت سببا في التّشظي الذي عايشنه خاصّة وأنّ الهويّة أزمة حرب وهذا ما أرادت الكاتبة إيصاله.

خاتمة: سعى بحثنا للإحاطة بفئة مهمّشة لطالما اعتبرت أقليّة فرنسيّة مسيحيّة وذلك من خلال استجلاء قضايا لطالما كانت من القضايا المغيبة انطلاقا من كشف المضمر والمستور في سياق روايّة قصر الصّنوبر في إطار مقاربة ثقافيّة عنوانها: تشظي الهويّة وأزمة الذات في روايّة قصر الصّنوبر لإلهام بورابة، وقد انتهينا إلى مجموعة من النّتائج أهمها:

–تندرج روايّة قصر الصّنوبر لإلهام بورابة ضمن حقل الدّراسات ما بعد الكولونيا ليّة الذي يهتم بالعلاقات الثّنائيّة التي تجمع بين المستعمر وشعوب المستعمرات ضمن ما يعرف بالسّرد المضاد أو سرديات المعارضة التي تناهض وتدحض جل المقولات الاستعماريّة وتعطي صوتا للفئات المهمشة والمغيبة؛

–إنّ أهم نتائج دراستنا التي اهتمت بنزيلات قصر الصّنوبر تدل على اعتناقهنّ للمسيحيّة واتباعهن دين ماري؛ **لكن التّنصير لم يتعد** بعض النّزيلات اللواتي اعتنقن المسيحيّة رغما عنهن، ببساطة لأن نشأتهن كانت مسيحيّة ورغم ذلك قد تخلّين عنها؛ فها هي **فاطمة** متدينة مسلمة بعد أن لقبها الجميع بالرّوسيّة الكافرة وبعد أن اتهمها البعض بالإلحاد، فقد عادت لدينها بعد كل الذي قيل عنها متديّنة مسلمة محافظة متّقيّة. مما يؤكد فشل المسعى التّبشيري لصعوبة اختراق النّسيج الاجتماعي للمجتمع الجزائري، خاصّة وأن عدد الذين اعتنقوا المسيحيّة كان قليلا جدا أغلبيتهم كان من الايتام الذين عادوا لديانتهم بعد انجلاء القوات الفرنسيّة. لأنّ المجتمع الجزائري كان جد متمسكًا بعقيدته ودينه وبقي متمسكا بهما رغم كل الظروف الاجتماعيّة الصّعبة فكيف له أن ينصّر شعبا لديه تفكير عقائدي راسخ ويعتبر بالنّسبة للمخيال الجماعي من المسلمات الثّابتة والتي لا تتغير؛

–انتبهت عيشة في روسيا لدينها المقموع المنسيّ قهرا في ذلك البلد الشّيوعي الذي منحها الفن في مقابل هويتها ودينها وكيانها. اذ تم اغتيال **عائشة** من أجل الإسلام لا غيره، لتصبح شهيدة الإسلام فقد كانت عيشة وفاطمة وغيرهن ضحايا عام النّار وضحايا مشروع التّبشير كغيرهن من البنات اليتيمات وضحايا ما كابده الجزائريون مع الفرنسيين؛

إنّ كل ما عايشته البنات اليتيمات في روسيا وفي الوطن كان كفيلا لأن يتمسّكن بدينهن وهويتهنّ، فقد حكت **فاطمة** عن آلامهن لنسيان آيات من القرآن الكريم حفظنها في صغرهنّ وهن في الحقيقة لم يتمسّكن بشيوعيّة روسيا ولا بدين **ماري**، بل منذ الميتم كنّ **بلا دين** تقليدا **لماري** وأن هذا الأمر بالتّحديد كان طبيعيا بالنّسبة لهن، لكنه سرعان ما انمحى من الذاكرة مثل ما انمحت صور الصّيام والعيد والصّلاة من ذاكرتهن، فحتىّ الآذان نسينه ولم تتذكره **فاطمة** سوى بعد عودتها إلى الجزائر، وأن كل الأفكار التي كانت تروّج وتشيع عنهنّ ليس لها أساس من الصّحة والهدف من ورائها هو تصفيتهن.

قائمة المراجع:

1_أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة الجزائريّة 1830-1900، ج1، دار البصائر الجزائر، 1992.

2_إلهام بورابة، ما حكايّة قصر الصّنوبر، حوار مع الكاتبة 2020/03/12. http://alriwaya.net تاريخ الدّخول إلى الموقع، 2024/02/07. السّاعة 12:20.

3_إلهام بورابه، قصر الصّنوبر، دار خيال للنشر والتّرجمة، الجزائر، ط1، 2020.

4_حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرّوايّة الجزائريّة، دار الغرب للنشر والتّوزيع الجزائر، ط1، 2005م.

5_خديجة بقطاش، الحركة التّبشيريّة الفرنسيّة في الجزائر، 1830-1871، دار دحلب الجزائر، د ط، 1992.

6_سعيدي مزيان، النّشاط التّنصيري للكاردينال لا فيجري في الجزائر (1867-1892) دار الشّروق، الجزائر، 2009.

7_عز الدّين عنايّة، نحن والمسيحيّة، في العالم العربي وفي العالم، دار توبقال للنشر المغرب، ط1، 2010.

8_محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثّقافيّة، قضايا اللسان والهويّة، دراسة في مسار الأفكار في علاقتها باللسان والهويّة ومتطلبات الحداثة والخصوصيّة والعولمة والعالميّة منشورات ثالة، الجزائر، 2003.

9_هومي بابا، موقع الثّقافة، تر: ثائر ديب، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2004.

10_وعلي محمد الطاهر، التّعليم التّبشيري في الجزائر، من 1830إلى 1904، دراسة تاريخيّة تحليليّة، رسالة ماجستير في علوم التّربيّة، جامعة الجزائر، 1988، 1989.

1_ Louis Baunard M le cardinal Lavigerie, Librairie Poussiel gue Paris, 1989.1

12_Charles Lavigerie, Notice sur La Société des Missionnaires D'Afriques dites Pères Blancs, ED Noviciat D'Alger, 1894.

الهوامش:

1_خديجة بقطاش، الحركة التّبشيريّة الفرنسيّة في الجزائر، 1830-1871، دار دحلب الجزائر، ط1، 1992، ص 12.

2_ محمد العربي ولد خليفة، المسألة الثّقافيّة، قضايا اللسان والهويّة، دراسة في مسار الأفكار في علاقتها باللسان والهويّة ومتطلبات الحداثة والخصوصيّة والعولمة والعالميّة منشورات ثالة، الجزائر، 2003، ص214.

3_عز الدّين عنايّة، نحن والمسيحيّة، في العالم العربي وفي العالم، دار توبقال للنشر المغرب، ط1، 2010، 45.

4_الأسقف أنطوان ديبيش: أول أسقف في الجزائر من سنة م1838 إلى سنة 1846م وهذا الأسقف هو صاحب كتاب الجزائر المسيحيّة الرّومانيّة الفرنسيّة. وخلال الثّماني سنوات التي قضاها في الجزائر ترك بعد مغادرته لمنصبه 60 كنيسة ومعبد وواحدًا وتسعين قسيسا و140 إطارًا من النّساء والرّجال في الشّؤون الدّينيّة وملجأ للأيتام.

5_كان خليفة الاسقف ديبيش، من أهم ما قام به في الجزائر خلال سنوات ولايته بها: افتتاح معبد " السّيدة الخلاص" على حصن سانتا كروز بوهران، وضع حجر الأساس لكنيسة السّيدة الافريقيّة في بوزريعة بالعاصمة، ووسع كاتدرائيّة سان فيليب واحضر مجموعة معلمين معروفين باسم " إخوة المدارس المسيحيّة " وافتتح بهم التّعليم الدّيني، وجعل أسقفيّة الجزائر بنفس مستوى أسقفيّة فرنسا كما وسع التّعليم وأنشأ مكتبات شعبيّة ومن أهم المناطق التي حاول تنصيرها هي مسرغين، عين الحمام، الاغواط. ينظر: خديجة بقطاش، الحركة التّبشيريّة في الجزائر، ص64.

6_وعلي محمد الطاهر، التّعليم التّبشيري في الجزائر، من 1830إلى 1904، دراسة تاريخيّة تحليليّة، رسالة ماجستير في علوم التّربيّة، جامعة الجزائر، 1988، 1989، ص33.

7_ولد شارل أنطوان مارسيال لا فيجري في 31 أكتوبر 1825م في مدينة وير قرب "بايون" على سفوح "جبال البريني"، وهو الابن الأكبر في عائلته المتكونة من أخ وأختين، شغل والدّه ليون لا فيجري منصب مفتش لدى مصلحة الجمارك بالمدينة أما عن أمه فهي لورا لا تريل وهما من عائلة برجوازيّة. ويعتبر من أهم المبشرين الذين مروا على الجزائر.

Louis Baunard M le cardinal Lavigerie .Librairie Poussiel gue, Paris 1989, p, 6.7.

أظهر لا فيجري منذ صباه توجها دينيا خاصّة من خلال زيارته الدّائم لكاتدرائيّة المدينة وفي سنة 1843دخل المدرسة الأكرليكيّة لدراسة الفلسفة، وفي سنة 1945 دخل المعهد الأكليريكي لدراسة اللاهوت. أراد بعث أسطورة القبائل المسيحيّة لفصل الكيان القبائلي عن الكيان الجزائري، أسس فرقة إخوان الصّحراء المسلحين، أسس فرقة الآباء البيض وفرقة

الأخوات البيض، اهتم بتشييد الهياكل الدّينيّة المسيحيّة، حيث ترك 1021 كنيسة أشهرها كنيسة باب الواد " سان جوزيف" وكنيسة " سان شارل " بآغا. وتعتبر كاتدرائيّة "السّيدة الإفريقيّة " أهم هيكل ديني مسيحي، عمل الكاردينال لا فيجري على تكريسه، وفي 1982 تولى الحاكم العام الفرنسي تنظيم مراسم دفن ضخمة تشريفا لشخصه.

8_ أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنيّة الجزائريّة 1830-1900، ج1، دار البصائر الجزائر، 1992، ص 405.

9_ Charles Lavigerie ،Notice sur La Société des Missionnaires D'Afriques dites Pères Blancs ،ED Noviciat D'Alger, 1894, p19.

10-Charles Lavigerie ،op. cit, p12.

11 _سعيدي مزيان، النّشاط التّنصيري للكاردينال لا فيجري في الجزائر (1867-1892) دار الشّروق، الجزائر، 2009، ص 86.

12_الكاتبة الهام بورابة مولودة عام 1965 بقسنطينة، الجزائر، متخرجة بشهادة ليسانس في علم النّفس التّربوي من جامعة قسنطينة 1988، اشتغلت في مناصب مختلفة من قطاع التّربيّة الوطنيّة (قسنطينة) بدأت الكتابة منذ الثّمانينات ونشرت في صحف وطنيّة منها النّصر والشّعب كما شاركت في مهرجانات شعريّة وطنيّة أصدرت مؤخرا ثلاثة مؤلفات عناوينها بالتّرتيب هي: شرفات الأمريكان (قصص قصيرة)، سلوان العنب، (مجموعة شعريّة) قصر الصّنوبر (روايّة). إلهام بورابة، ما حكايّة قصر الصّنوبر، حوار مع الكاتبة 2020/03/12 . http://alriwaya.net تاريخ الدّخول إلى الموقع، 2024/02/07. السّاعة 12:20. حازت عدة جوائز من أهمها جائزة في الشّعر وجائزة القصة القصيرة في مسابقة وطنيّة نظمت من طرف جريدة النّصر. وجائزة القصة القصيرة في 2015 من جمعيّة إبداع المرأة من جمعيّة الوادي.

13_الهام بورابه، قصر الصّنوبر، دار خيال للنشر والتّرجمة، الجزائر، ط1، 2020 ص17.

14_ المصدر نفسه، ص19.

15_الهام بورابة، قصر الصّنوبر، ص 20.

16_المصدر نفسه، ص70.

17 _ المصدر نفسه، ص30.

18_هومي بابا، موقع الثّقافة، تر: ثائر ديب، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 2004 ص151.

19–حكيم أومقران، البحث عن الذات في الرّوايّة الجزائريّة، دار الغرب للنشر والتّوزيع الجزائر، ط1، 2005م، ص95.

20_ إلهام بورابة، قصر الصّنوبر، ص20.

21_ المصدر نفسه، ص75.

22_ المصدر نفسه، ص 74.

23_ المصدر نفسه، ص88.

24_ المصدر نفسه، ص 106.

25_المصدر نفسه، ص 33.

26، المصدر نفسه، ص 34.

27_ المصدر نفسه، ص 35.

28_ المصدر نفسه، ص 21.

29_المصدر نفسه، ص 43.

30_ المصدر نفسه، ص 58.

31_ المصدر نفسه، ص28.

32_ المصدر نفسه، ص20.

33_المصدر نفسه، ص 20.

34_المصدر نفسه، ص20.

35_المصدر نفسه، ص84.

36_المصدر نفسه، ص21.